إيمان عظيم

للأستاذ أنور المعداوي

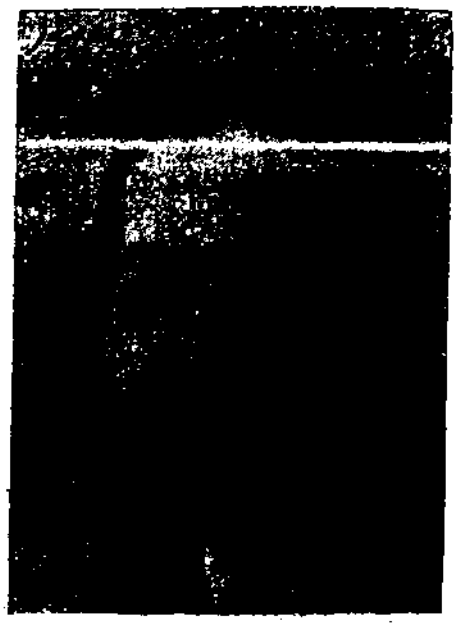

امرأة أحبت كل الحب، وآمنت كل الإيمان بمن تحب ... وكانت عاشقة يرح بها العشق فأذبل منها العيون وقرح الجفون وأحال ليلها سهدا متصلا يرقده الشوق ؛ وحنينا مضطرما يلهبه الوجد ؛ وهياما تكفر فيه الجنوب بالمضاجع وتسبح الدموع !

كان حبا عظيما لأنه وليد إيمان عظيم ... وهكذا تجد الحب الصادق في أرفع منازله وأعمق منابعه وأنبل معانيه ؛ لم تشوه من جلاله غاية ، ولم تعبث بطهره غواية ، ولم يرق إلى سمائه جناح في دنيا المحبين !

وما كان أعجبها قصة حب ... بل وما كان أعجبها قصة حياة ! حب لم يكن الباعث عليه شيئا من الترهيب أو شيئا من الترغيب ؛ وحياة ما أبعد الشقة فيها بين طرفين ؛ وما أكثر التنافر بين بداية ونهاية . وحين يكون الحب خالصا لوجه الحبيب فقد بلغ الذروة وأشرف على الأوج ؛ وحين تكون الحياة تطرفا في شوطها الأول فهي تطرف في شوطها الأخير ، سواء أكان التطرف مصدره الاعتدال هنا أم كان مصدره الإنحراف هناك !

وهكذا كانت رابعة العدوية ... وهكذا كانت عاشقة السماء .

عاشت في عصر يحفل بالشذوذ ويموج بالمتناقضات ، عصر أقبل فيه أناس على الرذيلة حتى ما يردعهم رادع من دين وحتى ما يزجرهم زاجر من خلق ؛ فليلهم إغراق في الإثم ونهارهم إمعان في المعصية وأقبل غيرهم على الفضيلة حتى ما تهدأ قلوبهم من خوف وما تسكن نفوسهم من قلق ، فليلهم إيغال في التهجد ونهارهم إسراف في البكاء وكانت البصرة في القرن الثاني للهجرة موطنا لأولئك كما كانت موطنا لهؤلاء ... وإلى المتطرفين في الضلال والوزر سلكت رابعة أول الطريق ، وإلى المتطرفين في الإيمان والزهد بلغت من هذا الطريق منتهاه .

انحدرت من صلب أبوين فقيرين ؛ لم يجدا ليلة مولدها شيئا مما يلف به كل وليد ... وكانت مولاة لآل عتيك ، وإلى بطن من بطون قيس تنتسب هذه القبيلة كما تنتسب إليها قبيلة أخرى هي بنو عدوة ، ومن هنا سميت عند بعض المؤرخين برابعة القيسية وسميت عند البعض الآخر برابعة العدوية . وحين اكتملت لها الأنوثة ونضجت فيها الفتاة . فقدت العائل في شخص الأب حين مات وحرمت أسباب البقاء في البصرة حين أصابها القحط .. فهامت على وجهها تلتمس المأوى الذي يرد عنها غائلة الجوع ويدفع مرارة الحرمان . ولكن الأمر ينتهي بها إلى أن تقع في يد من يذيقها ذل الأسر ووطأة الرق وحرقة الهوان !

وهناك ، في ذلك السجن الذي لفيت بين جدرانه ألوانا من الظلم وفنونا من الظلام ، رفت روحها في سماء الحبيب أول رفة ، وهمس صوتها أول همسة ، وانطلقت من بين الجوانح أول مناجاة « إلهي ! أنا غريبة يتيمة ، أرسف في قيود الرق ، ولكن غمي الكبير هو أن أعرف : أراض أنت عني أم غير راض » ؟ ! . . وبجيبها صوت لا تعرف مصدره ، ولكن فيه الأمن للخائف والأمل لليائس والعدل للمظلوم : « لا تحزني ! ففي يوم الحساب يتطلع المقربون في السماء إليك ويحسدونك على ما ستكونين فيه » !

عداس : —

المجيد لله القوى والعزيز الأغلب
آمنت أن الضيف ضـ ـيفا هذا هو فخر العرب
وأن فيه آية تدل أنه النبي ...

عتبه وشيبة في ذهول :

تدل أنه النبي ؟ ؟ تدل أنه النبي ؟ ؟

محمد عبد الغني حسن

وامتد أول خيط تعلقت به رابعة لتصعد إلى السماء متكئة على يد الله ! !

وكانت لحظة من لحظات الانقلاب فى حياة تلك الصوفية المؤمنة ، ابتدأت بالصوم والتهجد وقيام الليل ، وانتهت بالتحرر من هذا الرق الذى عصف بكل بقية من أمل لولا رعاية السماء . . لقد رآها سيدها ذات ليلة ساجدة تصلى واستمع إليها مبتهلة تقول: « إلهى ! أنت تعلم أن قلبى يتمنى طاعتك ، ونور عينى فى خدمة عتبتك ، ولو كان الأمر بيدى لما انقطعت لحظة عن خدمتك ، ولكنك تركتنى تحت رحمة هذا المخلوق القاسى من عبدتك » ! وانبثق فى هذه المرة ضوء كما انطلق فى المرة السابقة صوت ، وكلاهما لا تعرف مصدره ولكن فيه الأمن للخائف والأمل لليائس والعدل للمظلوم . . . وإذا بسيدها مرتاع النفس ملتاع الضمير ، يقضى الليل كله مؤرق الجفن مضطرب المضجع يريد أن ينتهى فى أمرها إلى قرار. فإذا كان النهار مضى إليها ليقول: «أى رابعة ! لقد وهبتك الحرية . فان شئت بقيت هنا ونحن جميعا فى خدمتك، وإن شئت رحلت أنى رغبت » ! . . وانطلقت رابعة إلى هناك، إلى حيث تقطف من رياض الحرية كل زهرة ، وتعب من ينابيعها كل قطرة ، وتستروح من أنسامها كل رخى طيب.

ولا ندرى لم تخلت عنها يد الله فنسيت رسالة الايمان لتتبع خطوات الشيطان ؟ ولكنها لم تتخل عنها إلا إلى حين ، لتعود بعد ذلك أكثر ما تكون تعلقا به وحنينا إليه وتهالكا عليه . . لقد اتخذت رابعة من مهنة العزف والغناء وسيلة لكسب العيش والسعى وراء الرزق ، وهى وسيلة لم تكن مأمونة العواقب على كل حال ، لأنها دفعت بصاحبتها إلى أن تغشى مجالس فيها اللهو والعبث والمجون ، وفيها المشاركة فى اللذات والانغماس فى الشهوات ولا مناص عندئذ من الاستجابة لفنون الاغراء شأن كل جميلة من بنات حواء ، وبخاصة إذا ما كانت صاحبة مزاج شاعرى كمزاج رابعة ، تقوده رهافة الحس وصفاء الطبع وجموح الخيال !

كانت فنانة ، وكانت إنسانة . . . وفى الفن تسطع ومضات الرؤى ويتوهج الأحلام ، وفى الإنسانية تشف نبضات الهوى وتفيض منابع الالهام ؛ وبهذين السلاحين راحت رابعة تشق صفوف البشر باحثة عن حبيب ! ولكن الأرض ليست موطنا لهذا الحب المثالى الذى ينشده الفن خالصا من الشوائب وتبتغيه الأنسانية مبرأ من الأهواء . . . وإذن فلا مناص من أن تولى الفنانة الانسانة وجهها شطر السماء !

وبدأت نقطة التحول فى حياة رابعة . . . إن الماضى الجميل فى كنف الحبيب الأعظم لا يزال يطل بذكرياته من خلف ستائر الضباب ، وإن القلب المعنى لا يزال يبحث عن قطرة ماء يمكن أن تطفىء ظمأ هواه ، وان الخيال الحائر لا يزال يرقب الأفق البعيد فى لهفة المتطلع إلى ما وراء الغمام . ومرة أخرى يمتد ذلك الخيط الالهى غير المنظور ، وتتعلق به رابعة لتصعد إلى السماء متكئة على يد الله !

وكان حبا عظيما لأنه وليد إيمان عظيم . . . وإذا ما أحبت المرأة من أعماق قلبها فلا شىء فى الدنيا يصرفها عن هذا الحب ، مهما اعترضت طريقها المحن وامتحنت روحها المغريات! إنها تؤمن بحبها هذا الايمان الخالص تبذله من ذات نفسها دون أن تنتظر عليه شيئا من الأجر أو أشياء من العوض . حسبها أن تهب قلبها لمن تحب ، وحسبها أن تفنى فيه وتذر له الحياة ، وحسبها أن تخرج من هذا الفناء بكثير من العزاء !

وانها لتقدم الدليل من نثرها حيث تناجيه فى هدأة الليل والناس نيام : « إلهى ! أنارت النجوم ، ونامت العيون ، وغلقت الملوك أبوابها ، وخلا كل حبيب بحبيبه ، وهذا مقامى بين يديك » ! . . . فاذا أسفر الصبح هتفت فى موكب الشجن وقدة الهيام : « إلهى ! هذا الليل قد أدبر ، وهذا النهار قد أسفر ، فليت شعرى : أقبلت منى ليلتى فأهنأ ، أم رددتها على فأشقى ؟ ! فوعزتك هذا دأبى ما أحييتنى وأعنتنى ، ولو طردتنى عن بابك ما برحت عنه لما وقع فى قلبى من محبتك » ! . . وإنها لتقدم الدليل من شعرها مرة أخرى حيث تقول :

أحبك حبين حب الهوى ... وحب لأنك أهل لذاكا
فأما الذى هو حب الهوى ... فذكر شغلت به عن سواكا
وأما الذى أنت أهـــل له
فكشفك لى الحجب حتى أراكا
فما الحمد فى ذا ؛ ولا ذاك لى ... ولكن الحمد فى ذا وذاكا

وتسوق بعض المصادر هذه الأبيات فى موقف اللقاء بينها

وبين « ذى النون المصرى » حيث تطالعنا هـذه القصة : « قال سعد بن عثمان : كنت مع ذى النون المصرى رحمه الله فى تيه بنى اسرائيل، وإذا بشخص قد أقبل، فقلت : يا أستاذ ! شخص قد أتى . فقال لى : أنظر من هو ، فانه لا يضع أحد قدمه فى هذا المكان إلا صديق . فنظرت فاذا هى امرأة ، فقلت : إنها امرأة . صديقة ورب الكعبة . فابتدر اليها وسلم عليها فقالت : ما للرجال ومخاطبة النساء ! فقال : أنا أخوك ذو النون ولست من أهل التهم . فقالت : مرحباً ! حياك الله بالسلام ! فقال لها : ما حملك على الدخول فى هذا الموضع ؟ فقالت : آية من كتاب الله عز وجل — قوله تعالى : ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ؟ — فقال لها : صفى لى المحبة ! فقالت : سبحان الله ! أنت عارف بها وتتكلم بلسان المعرفة وتسألنى عنها ؟ ! فقال لها : للسائل حق الجواب . فأنشدت تقول :

أحبك حبين حب الهوى وحب لأنك أهل لذاكا

هذه نماذج من النثر والشعر تصور هذا الحب الالهى فى إطاره الخالد ، وانها لقليل من كثير ... وأى اطار هو ؟ إنه إطار اللهفة الضارعة التى تنشد الرضا عن هذا الحب ولا تنشد سواه ، وتلجأ إلى كل وسيلة من الوسائل بغية الكشف عن أثر البذل والتضحية فى حساب الخالق العظيم ... وإنه لحساب لا يخطىء التقدير حين يزن بذل الباذلين وتضحية الصابرين ! وأى بذل وتضحية فى حياة رابعة أبلغ من أن تقص خادمتها « عبدة » من أنبائها فتقول : « كانت رابعة تصلى الليل كله ، فاذا طلع الفجر هجمت فى مصلاها هجمة خفيفة ، فكنت أسمعها تقول إذا وثبت من مرقدها وهى فزعة : يا نفس ! كم تنامين ، والى كم تقومين ؟ يوشك أن تنامى نومة لا تقومين منها إلا لصرخة يوم النشور » ! أو أن تحدث هى عن نفسها فتقول : « إنى لأضن باللقمة الطيبة أن أطعمها نفسى ، وإنى لأرى ذراعى قد سمن لأحزن » ! ... أو أن يقول عنها ابن منظور : « دخلت على رابعة وهى ساجدة ، فلما أحست بمكانى رفعت رأسها فاذا موضع سجودها كهيئة المستنقع من كثرة البكاء » !

ولم تكن تعبده رغبة فى جنته ولا رهبة من ناره، وإنما كانت تعبده عبادة الذين يرون وجهه : « يا إلهى ! إذا كنت أعبدك خوف النار فأحرقنى بنارك ، أو طمعاً فى الجنة فحرم على جنتك ، وإذا كنت لا أعبدك إلا من أجلك فلا تحرمنى جمال وجهك » .. ويا له من حب ذلك الذى أذبل منها العيون وقرح الجفون ، وأحال ليلها سهداً متصلا يرفده الشوق ، وحنيناً مضطرماً يلهب الوجد ، وهياماً تكفر فيه الجنوب بالمضاجع ، وتسبح الدموع !

وما أروع العقاب حين يصل الحب من نفس حبيبه إلى المكان الذى يؤثره ويرضاه ، هنالك ترفع الكلفة ويفسح الطريق ويتسع العفو الالهى لكل مقال يقتضيه مقام ، ولو كان اعتراضاً مهذباً أو غير مهذب فى رأى الذين لا يشعرون . . . وإذا ما اعترضت رابعة على حكم القدر فلا تثريب عليها ولا جناح ، لأنها فى موقف النجوى التى يطلقها القلب الفعم بصدق الحب وحرارة الولاء ، أو فى لحظة الهوى العارم التى يختفت فيها صوت الشعور والوجدان ؛ ولن يضيق حلم الخالق العظيم بصيحة تنبعث من ثجاج روح كم قدمت إلى ربها صوراً فائقة من أدب الخطاب ، روح تلك الصوفية المؤمنة التى قال عنها مالك بن دينار : « أتيتها فاذا هى تقول : كم من شهوة ذهبت لذتها وبقيت تبعتها ... يا رب ! أما كان لك عقوبة ولا أدب غير النار » ؟ !

لا يضيرنى فى رأيى من هذا العقاب الذى خطر لها يوما أن تتوجه به إلى رحاب الخالق العظيم ، لأن العقوبة الكبرى فى منطق رابعة العدوية ليست النار التى تحرق الأجساد حين يحال بينها وبين جنته ، ولكنها النار التى تحرق القلوب حين يحال بينها وبين رضاه . . . وهذا هو الجحيم الذى كانت تتصوره فى عالمها الفكرى الذى طبع حبها بذلك الطابع الذى لا شبيه له ولا نظير !

ومع ذلك فقد ذهب بعض الثلاة إلى أن رابعة بهذا القول قد اجترأت على مقام الخالق العظيم ... ولكنهم فى غمرة هذا الغلو الحائر قد نسوا إن يذكروا هذه الحقيقة : وهى أن رابعة قد مكثت أربعين سنة لا ترفع رأسها حياء من الله ! !

أنور المعداوى